القيادة النبوية في غزوة الخندق

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج: 5 يوليو 2015

بقلم: د. زكريا خنجي

في غزوة الخندق، تتجلى قدرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم القيادية في إدارة المعركة ووضع الخطط لها وكيفية مشاركته لأهل المدينة، فهو القائد وهو رئيس الدولة، والحريص على كل فرد من أفراد هذا المجتمع الصغير.

فالقيادة تعني ببساطة القدرة على التأثير وتحفيز الأفراد للقيام بأمر ما يوصل لتحقيق الأهداف، والقائد هو الذي يشارك مرؤوسيه في آرائهم ويستمع إلى مقترحاتهم وأفكارهم، ويعيش آلامهم ويحفزهم ويغرس في نفوسهم الطاقة والنشاط، ليس ذلك فحسب وإنما يضحي برغباته واحتياجاته الشخصية لتحقيق الصالح العام، بالإضافة إلى قدرته على التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة وتشكيل فرق العمل، فهو الذي يتحكم بزمام الأمور، ولا تدعها تتحكم بك.

في الخندق، وعندما تناهى إلى مسامع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن الكفار يريدون غزو المدينة عقد مجلس الشورى، مجلس من المهاجرين القرشيين والأنصار الأوس والخزرج، وغيرهم من القبائل

المختلفة، بل إن فيهم من ليس عربيًا أصلاً مثل بلال الحبشي وسلمان الفارسي الذي كان صاحب فكرة الخندق.

لم يكتفِ القائد بذلك، وإنما نزل إلى ميدان المعركة؛ ليدرس أرض المعركة وتضاريس المدينة ونقاط الضعف التي كان من الممكن أن تضرب منها المدينة، وبالتالي أين يحفر الخندق، وعندما أجمع الخبراء العسكريين ومجلس الشورى برئاسته صلى اللّه عليه وسلم، بدأت المعاول تحفر الخندق.

إلا أن تنفيذ الخندق يعد مما يقارب المستحيل؛ فمشروع حفر الخندق مشروع لا يتخيله عقل أبدًا؛ ذلك أن عمق الخندق يبلغ خمسة أمتار، بينما يصل عرضه في أقل التقديرات إلى خمسة أمتار أيضًا (بعض التقديرات تذهب به إلى 10 و12 مترًا)، ويبلغ طوله اثني عشر كيلو مترًا. وهذه الأبعاد تدل على أن الأرض المفروض حفرها يبلغ حجمها 300 ألف متر مكعب! وهذا لم يذهل كفار قريش فحسب وإنما ما زال الكثير من خبراء المهندسين يستغربون من إمكانية حفر هذا الخندق في غضون أيام معدودة وبالأدوات البدائية التي كانت متوفرة في ذلك الزمان.

لم يشرف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على حفر الخندق فحسب وإنما كان يضرب بالمعول بنفسه ويحمل التراب بنفسه كاشفًا بطنه حتى لا تعوق الملابس حركته. فهل يمكننا أن نتخيل ذلك ؟

واستمر الحصار ثلاثة أسابيع حتى شح الطعام، وانتشر الخوف، وزاغت الأبصار، وزلزلت الأرض تحت أقدام الرجال والنساء والأطفال،

وما زال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واقفاً مع الرجال، يعيش معهم ويجوع معهم ولا يأكل إلا مما يأكلون، يذكر أبو طلحة الأنصاري رضى اللّه عنه: شكونا إلى الرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر فرفع صلى اللّه عليه وسلم عن حجرين. وهذه كناية عن شدة الجوع.

لم يجلس القائد في منزله ويعيش حياته المترفة ويخطب الخطب الرنانة ويطلق الكلمات البراقة ويدعو للكفاح وحمل السلاح وبذل الجهد والعمل، بل كان القائد يعاني من الجوع أكثر من الشعب، وكان يقف في الخندق كما يقفون ويكافح ويعمل بيده الشريفة كما يعملون، ويحارب ويحمل السلاح كما يفعلون.

إن لم تكن تلك سمات القائد، بل سيد القادة فيا ترى ماذا يمكن أن تكون ؟